الحياة الطيّبة
السنة ١٩
العدد ٣٢
خريف ٢٠١٥ م
ملف العدد

الحرّيّة في مجال الاجتماع الإنسانيّ
- رؤية إسلاميّة مقارنة -

الدكتور أمير رحماني[1]

خلاصة:

الحرّيّة حقّ فطريّ تكوينيّ من الحقوق الطبيعيّة للإنسان التي لا تقبل الإسقاط. ويستلزم هذا الحقّ وجود تكليف للشخص وواجب عليه، كما يستلزم أن يسري هذا الحكم على الآخرين أيضاً. فالشخص نفسه ليس له - بنظر العقل - أن يسدّ طريق كماله وحركته، ولا أن يجعل إرادته تابعة لإرادة غيره.

وبمقتضى غاية حياة الإنسان، والشوق الذي لديه للوصول إلى الكمال، وكونه اجتماعيّاً ومدنيّاً بالفطرة، وكون المجتمع الإنسانيّ له كماله وهدفه المعروف والمعهود -أيضاً-؛ لذا كانت الحرّيّة الفرديّة والاجتماعيّة للإنسان مقيّدة؛ كأصل وجود الحرّيّة نفسها. وهذا أمر مطابق لخلق الإنسان وتكوينه، ويُدركه الإنسان بفطرته.

وقد شُرِّعت القوانين الإلهيّة التي جاء بها الأنبياء عليهم السلام بهدف تنظيم الحياة الفرديّة والاجتماعيّة وترشيد سير الإنسان نحو الكمال، وعملت الحكومات الصالحة التي أقاموها على رقي المجتمع وتعاليه في كلّ عصر؛ حسب مقتضيات كلّ زمان، وهذا لا يُعدُّ استلاباً للحرّيّة الطبيعيّة، والحقّ الطبيعيّ للإنسان؛ لأنّ عدم لجم الإنسان وتقييده في هذه المجالات؛ سوف يؤدّي إمّا إلى تخريب الاجتماع البشريّ، أو إلى

(1) باحث في الفكر الإسلاميّ، من إيران.

انحطاطه وابتعاده عن طريق الكمال والسعادة، وهذان الأمران مخالفان للفطرة والطبيعة الاجتماعيّتين، وطلب الكمال.

فالحرّيّة هي «**كمال وسيلة**»، لا «**كمال غاية**»، ولا تمام الهدف، فالغاية هي وصول الإنسان، الحرّ المختار، والعاصي، والظلوم، والجهول، إلى الكمال المطلوب، وليست الوصول إلى الحرّيّة نفسها. نعم، إذا فقد الإنسان الحرّيّة، ليس له بعد ذلك كمال في سلوك هذا الطريق. فلا كمال إنسانيّاً مع الجبر والإكراه. فكمال الإنسان يتمثّل في الحركة بحرّيّة وعلم ووعي.

لذا، فإنّ وجود الإنسان وحياته الفرديّة الاجتماعيّة، والهدف من خلقه وسعادته، تدعونا إلى إيجاد السبيل الذي يكون ضامناً لسعادتنا، والذي يلحظ مختلف جوانب حياتنا، ويُنظّم العلاقة في ما بيننا بشكل صحيح، ويُرشدنا، من خلال وضع نظام معقول ومتناسب مع البناء الوجوديّ للإنسان، للوصول به إلى الكمال المطلوب.

مصطلحات مفتاحيّة:

الحرّيّة، الاجتماع الإنسانيّ، الفطرة، التكليف، التشريع الدينيّ، الكمال، مصادرة الحرّيّات، ...

مقدّمة:

تُعدّ الحرّيّة في مجال الاجتماع الإنسانيّ إحدى القضايا التي بحثها الفكر البشريّ منذ زمن بعيد؛ فهي على قدرٍ كبيرٍ من الأهمّيّة، حيث بُذلت تضحيات كبيرة، في جميع العصور الإنسانيّة، بغية الحصول عليها وتحكيمها في المجتمع. فما هي حقيقة الحرّيّة؟ وما هو الأمر غير المعروف عنها في الواقع؟ وما هو منشؤها وأصلها؟ ولماذا تُعدّ كمالاً للإنسان والمجتمع الإنسانيّ؟ وهل هناك شيء أهمّ منها؟ وهل الحرّيّة الاجتماعية مقيّدة بقيود معيّنة؟ وما هي تلك القيود؟ ولماذا نَشد البشر الحرّيّة إلى هذه الدرجة؟ وما هي العوامل التي تؤدّي إلى سلب الحرّيّة وفقدها في المجتمعات البشريّة؟ وما هي طرق مواجهة هذه العوامل؟ وما هي الأصول والقواعد التي يُمكنها أن تحمي هذه الإرادة العامّة وتضمن بقاءها؟ وما هو موقع الناس والنخب الاجتماعيّة والعلماء وأصحاب السلطة والحكّام في هذا الصدد؟ هذه الأسئلة، وغيرها من أسئلة كثيرة، تُطرَح على أيّ مذهب، وأيّ نحلة تشغلهما هواجس الإنسان ومصيره الاجتماعيّ، وسُبُل تأمين سعادته وكماله.

فمنذ مئات السنين، يسعى العلماء برؤاهم الكونيّة المختلفة إلى الإجابة عن هذه الأسئلة. وكانت حصيلة أفكارهم انتشار المذاهب والنظريّات الاجتماعيّة والسياسيّة والأنظمة الحكوميّة المختلفة في العالم. وقد أفل نجم كثير من هذه المذاهب والنظريّات، بمرور الزمن، وتركت في قلوب أتباعها رغبة في تحقيق هذا الهدف المنشود (أي تركتهم عطشى للحرّيّة الواقعيّة)؛ ذلك أنّ بعض الحكومات وصلت إلى السلطة حاملةً نظريّات جديدة شعارها «حرّيّة حرّيّة»، لكنّ لم ينتج عنها سوى الاستبداد والديكتاتوريّة. واليوم، يعترف المفكّرون المنصفون، في العالم، بعجز المذاهب البشريّة الموجودة، وأنظمة العلاقات السياسيّة الاجتماعيّة السائدة في العالم الحاكم عن توفير هذا الكنز النادر، ولا يزال هؤلاء المفكّرون يسعون إلى تقديم سبل جديدة أمام الإنسان. وقد

أظهر علماء المسلمين - بسبب تاريخ مديد من الاستعمار والاستبداد في المجتمعات الإسلاميّة، وتعطّش المسلمين للتحرّر والانعتاق من نير الظالمين- اهتماماً واضحاً بهذا الأمر المهمّ، وسعوا إلى تقديم طرق جديدة، غير أنّ هذه الطُرُق تغذّت، في أكثر نماذجها، من مصادر العلماء غير المسلمين، وخصوصاً الفلاسفة المادّيين وأفكارهم، فكانت أرضيّة الانحراف، في الاستنتاج الصحيح والمفيد، نفسها ضمن تلك المقولة من العجز آنف الذكر.

أولاً: تحديد مفهوم الحرّيّة؟

إنّ الإنسان كائن حيّ، يسعى ويتحرّك، ولديه استعداد فطريّ للتطوّر والتكامل، وهو مخلوق لتحقيق هدف أعلى، ينبغي أن يتّجه إليه؛ وهو، في مسير الرشد والترقّي، يحتاج إلى أمور لا تكامل من دونها. وبعض هذه الأمور إيجابيّ - ينبغي أن يكون موجوداً -، كالتعليم والتربية والثقافة الصحيحتين المتوافرتين في المجتمع، وبعضها سلبيّ - ينبغي ألا يكون موجوداً -، كالقيود والحدود التي تحدّ من الحركة والتقدّم. ومن الطبيعي أنّ المانع قد يكون - أحياناً - من عوامل الطبيعة وجزءاً من نواميس الخلق وسننهم، لذا لا يكون التحرّر منه مطلوباً، بل هو غير ممكن، وليس كمالاً، كما أنّه غير مرغوب فيه.

فالحرّية هي الانعتاق، أو التحرّر، من القيود والموانع التي توقف نشاط الإنسان وإرادته، وتُكبّله بالسلاسل؛ سواء وُجِدَ القيد والحدّ فعليّاً، وحصل الانقطاع، أم كان لهما شأن الأسر والحجز، من دون أن يوقع الشخص نفسه فيهما، ويُصبح تحت وطأتهما.

لذلك، فالحرّيّة ليست متعلّقة بموانع الفعل؛ وإنّما هي مرتبطة بموانع الفاعل؛ أي بالأمور التي تحول دون إبراز فاعليّة الفاعل وظهور إرادته. فالحرّيّة تعني أن يكون ميدان العمل وتجلّي إرادة الإنسان مفتوحاً وغير مقفل أو مضيَّق.

ثانياً: الحرّيّة حقّ غير قابل للإسقاط:

بناءً على ما سبق، يتّضح أنّ الحرّيّة هي حقّ من الحقوق الطبيعيّة للإنسان، وهي حقّ تكوينيّ له تقتضيه قوانين، ومن لوازم كماله الفطريّ؛ فكلّ إنسان، من حيث إنّه طالب للكمال المطلق، ويسير نحوه، ينبغي أن يكون مسار حركته مفتوحاً؛ ليصل إلى هدف الخلق. وهذا الحقّ يستلزم وجود تكليف للشخص وواجب عليه، كما يستلزم أن يسري هذا الحكم على الآخرين أيضاً. فالشخص نفسه ليس له - بنظر العقل - أن يسدّ طريق كماله وحركته، ولا أن يجعل إرادته تابعة لإرادة غيره؛ وبعبارة أخرى: الحرّيّة هي حقّ من الحقوق التي لا تقبل الإسقاط؛ أي إنّها ليست؛ كالحقوق الاعتباريّة التي يكون صاحب الحقّ مسلّطاً عليها؛ حتى يُمكنه أن يُعرِضَ عنها ويُسقطها. ومن هنا، يقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، في وصيّته لابنه الإمام الحسن عليه السلام: «**لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرّاً**»[1]؛ ما يعني أنّ حرّيّة الإنسان أمر إلهيّ جعله الله تعالى في أصل وجود الإنسان، وينبغي للإنسان ألّا يحرم نفسه منه؛ سواء بتمليك نفسه لغيره، أم بإسقاط حقّ الحاكميّة والحرّيّة الاجتماعيّين، كما أنّه لا يحقّ لغيره أن يسلبه حرّيّته؛ لأنّ الله تعالى خلق جميع الناس أحراراً، والحجز ومنع الإنسان من متابعة مسيرة كماله؛ يعنيان تعريضه للهلاك والخسران والحرمان.

ثالثاً: منشأ الحرّيّة الاجتماعيّة:

يقول الله - تبارك وتعالى - في كتابه الحكيم: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾[2]، و﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا

(1) الموسوي، محمد بن الحسين (الشريف الرضي): نهج البلاغة (الجامع لخطب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وحكمه ورسائله)، شرح محمد عبده، ط1، قم المقدّسة، دار الذخائر؛ مطبعة النهضة، 1412هـ.ق/ 1370هـ.ش، ج3، رسالة31، ص51.
(2) سورة النساء، الآية 25.

ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾[1]؛ حيث يُستفاد من هاتين الآيتين الشريفتين، أنّ أفراد البشر جميعهم - مع كلّ الاختلاف والتفاوت والتمايز الموجود بينهم- أجزاء متشابهة من حقيقة واحدة؛ فنوع الإنسان والاجتماع البشريّ يحتاج - لكي يتحقّق- إلى الأجزاء جميعها، فلا يوجد فرد أعلى من الآخر أو فوقه في هذه الخصوصيّة.

وعلى الرغم من أنّ لكلّ فئة من الناس خصوصيّات ومزايا تجعلها مختلفة عن غيرها من الفئات الأخرى، ومن أنّ كلّ واحدة منها تؤثّر - بنحو ما - على الاجتماع الإنسانيّ؛ فإنّه لا شكّ في أنّ الجميع أحرار في الأمور الاجتماعيّة، ومختارون، وأصحاب حقّ في اتّخاذ القرار، وليس لأحدٍ فرض إرادته على الآخرين، ومنعهم من المشاركة في الأمور الاجتماعيّة، وليس له أن يستعلي عليهم ويتعبّدهم.

ومن الطبيعي أن يؤدّي تعاون الأفراد، ومشاركة الجميع في بناء مجتمع صالح يسعى إلى تحقيق العدالة، إلى عدم إعمال الإرادة (في جانب)، والتخلّي عن بعض الحرّيّات الفرديّة، ولكنّ في هذا الأمر المهمّ لا وجود لأيّ استثناء، ولا تصير العلاقة من طرف واحد على الإطلاق (أي على حساب طرف دون آخر). فعندما يتنازل شخص ما عن حرّيّته وبعض مصالحه لشخص آخر، يجب على هذا الآخر أن يعمل من أجل خيره وخير من تنازل له. وإنّ خضوع المجتمع، أو أيّ فرد أو فئة وشريحة من الناس، لشخص أو مجموعة؛ بنحو يُخرِج هذا الشخص أو تلك المجموعة من البعضيّة والجزئيّة والمساواة، ويجعل أيّاً منهما مسلّطاً وحاكماً - في الحدّ الأعلى- على الآخرين، فيكون بالنسبة إليهم؛ كالربّ المُطاع والمنقاد إليه ومطلق العنان؛ إنّ هذا الخضوع يؤدّي إلى هدم بنيان الإنسانيّة، وتحطيم الفطرة. وما ورد في الآية: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن

(1) سورة آل عمران، الآية 64.

﴿تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[1]، يدلّ على أنّ الربوبية ولزوم الطاعة المطلقة مختصّة بالذّات الإلهيّة، ولا شريك له - سبحانه - في هذا الأمر؛ أي في الألوهيّة؛ فهي مختصّة به - عزّ وجلّ -؛ لذلك، يقوم الإسلام بالجمع بين أمرين: **الأول**: لا وجود لإله غير الله. **والثاني**: لا طاعة لغير الله.

فكلّ طاعة للآخر وكلّ قبول لإرادة الآخرين، إذا لم ينتهيا إلى طاعة الله، فهما مخالفة للإسلام، وشرك في الطاعة والربوبيّة. ولذلك يذمّ الله تعالى في كتابه المجيد أهل الكتاب؛ لأنّهم جعلوا غير الله مالكاً ومدبّراً لشؤونهم، وأذعنوا بالمطلق لعلماء السوء وطلّاب الدنيا، فبدل القيام بتعليم الأحكام الإلهيّة، والدعوة إليها، وطاعة الله، كانوا يسوقون الناس في طريق الأهواء النفسيّة والتبعيّة لإرادتهم الشيطانيّة، فيقول - تعالى -: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[2].

وهذا ما قام به الرسول الأكرمﷺ، في بداية الرسالة، حيث أطلق شعار الحرّيّة، ودعا الناس إلى التحرّر من قيود الجاهليّة: «**قولوا لا إله إلّا الله تفلحوا**»[3]؛ أي إنّ صلاح الدنيا والآخرة ينشأ من عدم التسليم والخضوع لأرباب المال والسلطة والمخادعين؛ كما ينشأ من استخدام الإرادة للوصول إلى الكمال الغائيّ للبشريّة، وتحقيق العبوديّة الخالصة لله - تعالى -: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[4]، إذ نجد في هذه الآية النفي والإثبات، والرفض والتسليم، والحرّية والعبودية، وطالما أنّه

(1) سورة آل عمران، الآية 64.
(2) سورة التوبة، الآية31؛ وانظر قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ (سورة الأنبياء، الآية 25)؛ ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ (سورة الشعراء، الآية 213).
(3) المجلسي، محمد باقر: بحار الأنوار، تحقيق: عبد الرحيم الرباني الشيرازي، ط3، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1403هـ.ق/ 1983م، ج18، ب1 من أبواب أحوالهﷺ من البعثة إلى نزول المدينة، ح32، ص202.
(4) سورة الذاريات، الآية 56.

لا رفض ولا عصيان، فلا يتحقّق إثبات ولا تسليم ولا إيمان. وطالما أنّه لا انفكاك لعقال العبودية والرقّيّة، فلا تحقّق لحرّيّة واقعيّة، فعبوديّة الله تعالى، هي عين الحرّيّة والحركة والفاعليّة والتحقّق، فلا أسر ولا انسداد في ذلك.

رابعاً: التشريع الدينيّ وحماية حرّيّة الإنسان:

1. بداية تشكّل الاجتماع الإنسانيّ:

كان الناس، في بداية تشكّل الاجتماع الإنسانيّ، أمّة واحدة. والجميع كان لهم هدف واحد، ولم يقعوا في تنازع أو اختلاف في الحياة وفي الاستفادة من ثروات الوجود؛ وكان علمهم وإدراكهم بسيطين ومحدودين، وكانت حاجاتهم منحصرة في سدّ جوعهم، ودفع أذى الحيوانات عنهم، واتّقاء الحرّ والبرد. واتّخذوا الكهوف بيوتاً لهم، واستفادوا من الحيوانات والنباتات وثمرات البحار في تأمين حياتهم المعيشيّة. وسعى كلّ إنسان – طلباً للنفع والمصلحة الشخصيّة؛ بحكم الفطرة– إلى التصرّف بثروات الطبيعة وتسخيرها، وجعل الموجودات الحيّة وغير الحيّة في خدمته. وعندما وجد نفسه عاجزاً عن تأمينها اضطرّ للتعاون مع غيره؛ ليتمكّن الجميع من الاستفادة الفضلى من الإمكانات والفُرَص المتاحة؛ لذلك قَبِلَ بضرورة قيام المجتمع المشارك، والمدنيّة، وإجراء المعاملات في كلّ ما يملكه وما يفقده، ورضي بأن تكون هذه العلاقات والمعاملات على نحو لا تضيع معه حقوق الأشخاص، وبأن يسود معها العدل الاجتماعيّ؛ لأنّ الغرض الأساس له هو الاستخدام الأقصى للطبيعة ومواردها، والوصول إلى المنافع الأكثر؛ وهذا لا يتمّ إلا بالتعادل والتساوي في ما يُعطيه وما يأخذه[1].

(1) انظر: الطباطبائي، محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن، لا.ط، قم المقدّسة، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، لا.ت، ج2، ص113–120.

2. منشأ التنازع والاختلاف بين الناس:

شاءت الحكمة الإلهيّة أن يكون الناس متفاوتين؛ من حيث استعداداتهم وقواهم، وأن تكون لديهم مشاعر ومدارك وميول مختلفة، ولا شكّ في أنّه سوف تتفاوت آمالهم وأهدافهم -أيضاً-: ﴿...وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ ...﴾[1].

وفي النتيجة، الاختلاف هو اختلافهم من حيث القوّة والضعف، فتصير مجموعة أقوى، ومجموعة أخرى أضعف. وبسبب نزعة المنفعة الشخصيّة والطبيعة الظلومة والجهولة الهلوعة[2]، يحدث الانحراف عن جادّة العدل، ويمضي الأقوياء والأغنياء في طريق الطغيان والتعدّي على حقوق الضعفاء، ويسخّرون قدرات هؤلاء؛ الفكريّة والبدنيّة، من دون تقديم منفعة معتبرة لهم في مقابل ذلك، بل يصادرون حرّياتهم، ويجبرونهم على الرضوخ لآرائهم؛ ما يؤدّي إلى انحراف المجتمع الإنسانيّ عن حالة التوازن، ويستولي عليه الاختلاف والظلم، ويُقضى على السعادة والكمال الإنسانيّ، وتتلوّث الفطرة الطبيعيّة، ويختلّ النظام الاجتماعيّ.

إنّ المراد من اختلاف الناس، في قوله - تعالى -: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ﴾، هو النزاع على استخدام الطبيعة، والاستفادة من إمكانات الحياة[3].

3. التدبير الإلهيّ في رفع التنازع والاختلاف:

بغية رفع هذا التنازع والاختلاف بين بني الإنسان؛ كان تدبير الله تعالى وأمره؛ ليفتح أمامه سبيلاً خارجاً عنه؛ لأنّ طبيعته الظلومة والجهولة والهلوعة تدعوه إلى الفساد والطغيان، فينبغي أن يُقيَّد (يُوجَّه) من الخارج وبحكم قوله - تعالى -: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[4]، فهو

(1) سورة هود، الآيتان 118-119.
(2) انظر: سورة المعارج، الآية 19؛ سورة الأحزاب، الآية 72؛ سورة إبراهيم، الآية 34.
(3) انظر: الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج2، ص113-120.
(4) سورة طه، الآية 50.

يهديه إلى طريق السعادة والهدف الغائيّ لوجوده، ودائماً ينهل من المدد والعطاء الإلهيّين؛ وذلك لأنّ الإنسان ليس خلقاً ماديّاً ودنيويّاً فحسب؛ وإنّما هو موجود إلهيّ ومادّيّ، مركّب من روح وبدن، وروحه تعود إلى الله، وهي خالدة أبديّة[1]؛ لذا ينبغي أن تكون هدايته ضامنة لسعادته الأبديّة، ومكمِّلة ومعدِّلة لكلّ أبعاده الوجوديّة. وبناءً عليه، أرسل الربّ الحكيم الأنبياء عليهم السلام بالكتاب، والقانون، والحدود، والقيود الفرديّة والاجتماعيّة؛ ليأخذوا بأيدي البشر، ويرشدوهم إلى المنزل المقصود؛ من خلال إيجاد الأنظمة والتكافؤ الاجتماعيّ، وصناعة الإنسان العالم بسعادته وكماله الحقيقيّ، والعامل بما يؤمِّن تلك السعادة، وكذلك ليقطعوا التنازع والاختلاف الذي يُشكِّل جذور الفساد والخراب. ولذلك قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾[2].[3]

4. **منهج التدبير الإلهيّ في رفع الاختلاف:**

إنّ شعار دعوة الأنبياء عليهم السلام كان كلمة واحدة؛ هي: عبادة الله الواحد الأحد، والكمال المطلق، واجتناب مظاهر الطغيان والفساد: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[4]. وإنّ الكلام الواحد لجميع أهل الكتاب والشرائع السماوية هو أنّ الناس متساوون في ما بينهم، وليس لأحد منهم أمر على الآخر، وإنّما الأمر للربّ المتعال: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[5]، ويُذكِّر الله – تعالى – بني إسرائيل بنعمة الحرّيّة والانعتاق التي خصّهم بها؛ بإرسال النبي موسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ

(1) انظر: سورة المؤمنون، الآية 16؛ سورة ص، الآية 72؛ سورة السجدة، الآية 12؛ سورة البقرة، الآية 156.
(2) سورة البقرة، الآية 213.
(3) انظر: الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج2، ص120–122.
(4) سورة النحل، الآية 36.
(5) سورة آل عمران، الآية 64.

وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾[1].

وفي صدد بيان خصائص دعوة خاتم الأنبياء ﷺ يقول - تعالى -: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾[2]، فرسالة النبي ﷺ كانت دعوة إلى الخير والمعروف، ونهياً عن الفواحش والخبائث، وإباحة ما هو نقي وصالح للروح والجسم، وتحريم ما هو قبيح وخبيث ومخالف للطبائع النقيّة. وفي النهاية، أزال عنهم الأغلال والأقفال التي كانت تُقيّد تفكيرهم، وحطّم السجون التي كانوا قد أقاموها بالتبعيّة العمياء، والتعصّب، والجهل، وعبادة الخرافات، وفكّ القيود التي ضربها الأحبار والرهبان وأسيادهم وأقوياؤهم على أيديهم وأرجلهم، وكما يُعبّر الإمام علي عليه السلام: «**جَعلَه الله سبحانَه بلاغاً لرسالته، وكرامة لأمّته، وربيعاً لأهل زَمانه**»[3]، و«**أرسله بالضياء، وقدّمه في الاصطفاء، فرتق به المفاتق، وساور به المغالب، وذلّل به الصعوبة، وسهّل به الحزونة؛ حتى سرح الضلال عن يمين وشمال**»[4].

5. معوّقات عمليّة إزالة التنازع والاختلاف:

بعد بيان الهدف من بعثة الأنبياء عليهم السلام، وإنزال الكتب، وإيضاح دور الدين في رفع التنازع والاختلاف، يُبيّن القرآن الكريم معوّقات إزالة التنازع والاختلاف: ﴿أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ۚ ... وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ ﴾[5]. والحقّ إنّ هؤلاء الذين اختلفوا وتفرّقوا بغياً بينهم قد استخدموا هذه النعمة - الحرّيّة - لمآربهم الدنيويّة الرخيصة؛

(1) سورة البقرة، الآية 49.
(2) سورة الأعراف، الآية 157.
(3) الشريف الرضي، نهج البلاغة، م.س، ج2، الخطبة198، ص176.
(4) م.ن، الخطبة213، ص194.
(5) سورة الشورى، الآيتان13-14.

كما قال الإمام علي عليه السلام: «**إنّ هذا الدين قد كان أسيراً في أيدي الأشرار، يُعمل فيه بالهوى، وتُطلب به الدنيا**»[1].

وكانت نتيجة هذا الظلم والطغيان عودة المجتمع الإنسانيّ إلى جهل عصر الجاهليّة وفساده وكوارثه[2].

خامساً: منشأ تقييد حرّيّة البشر:

بما أنّ أفراد الناس هم أجزاء (عناصر) الحقيقة الواحدة، وفي هذه الخصوصيّة لا فرق بينهم ولا امتيازات؛ لذلك فهم جميعاً أحرار في فعالهم، وليس لأحد أن يسلب حرّيّة غيره؛ وهذا الأمر يقتضيه خلْق الإنسان حرّاً مختاراً، غير أنّ هذه الحقيقة الواحدة لها مقصد واحد، والهدف من الخلق هو الوصول إلى هذا المقصد، والإنسان نفسه طالب له، ومشتاق للوصول إليه بفطرته؛ وهو طلب الكمال، والبحث عن الحقيقة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾[3].

فمن جهة، الإنسان كائن اجتماعيّ ومدنيّ بالطبع يُريد التعامل مع الآخرين والاستفادة منهم؛ كما يُريد -أيضاً- التكامل، وتسهيل هذا التكامل. وعليه:

1. بمقتضى غاية حياة الإنسان، والشوق الذي لديه، لا يُمكنه - عقلاً - أن يصرف إرادته نحو أمور، وأن يُنشّط حرّيّته في عمل يُبعده عن هدفه، ويُحطّم وجوده، وتكون نتيجة ذلك الخسران: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾[4]، و﴿هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[5].
2. بمقتضى كون الإنسان اجتماعيّاً ومدنيّاً بالفطرة؛ لا يُمكن أن

(1) الشريف الرضي، نهج البلاغة، م.س، ج3، رسالة53، ص95.
(2) انظر: الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج2، ص122.
(3) سورة الإنشقاق، الآية 6.
(4) سورة الزمر، الآية 15.
(5) سورة الأنعام، الآية 47.

يترك العنان لميوله ورغباته؛ بحيث يؤدّي ذلك إلى سلب حقوق الآخرين، وتجاهل حرّيّاتهم وكراماتهم؛ ذلك أنّ إباحة هذا الأمر لجميع أفراد المجتمع؛ سيؤدّي إلى الهرج والمرج، واختلال نظام الاجتماع، والقضاء على الحياة الاجتماعيّة، وهلاك النوع البشريّ، وهذا خلاف الفطرة الإنسانيّة. فالفطرة تحكم بمحدوديّة دائرة حرّيّات الإنسان في الحياة الاجتماعيّة؛ لتُحفظ، ولا يهلك الحرث والنسل؛ وإلا فالإنسان المغرور، الذي لا يعرف قيداً ولا حدّاً، يُدمّر كلّ شيء: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾[1].

3. بما أنّ المجتمع الإنسانيّ له كماله وهدفه المعروف والمعهود، ينبغي أن تتّجه جهوده نحو رقيّ الاجتماع الإنسانيّ وكماله؛ كما ينبغي أن يتّقي الإنسان كلّ ما يمنع من رشده وحركته، وأن يلجم عنان رغباته، ويراعي التوازن والتكافؤ؛ ليتشكّل المجتمع العادل والمعتدل والوسط: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾[2].

لذا كانت الحرّيّة الفرديّة والاجتماعيّة للإنسان مقيّدة بما تقدّم؛ كأصل وجود الحرّيّة نفسها. وهذا أمر مطابق لخلق الإنسان وتكوينه، ويُدركه الإنسان بفطرته.

سادساً: حدود الحرّيّة في الرؤية الإلهيّة:

شُرِّعت القوانين الإلهيّة التي جاء بها الأنبياء عليهم السلام بهدف تنظيم الحياة الفرديّة والاجتماعيّة وترشيد سير الإنسان نحو الكمال، وقد عملت الحكومات الصالحة التي أقاموها على رقي المجتمع وتعاليه في كلّ عصر؛ حسب مقتضيات كلّ زمان، وهذا لا يُعدُّ استلاباً للحرّيّة الطبيعيّة، والحقّ

(1) سورة البقرة، الآية 205.
(2) سورة البقرة، الآية 143.

الطبيعيّ للإنسان؛ لأنّ عدم لجم الإنسان وتقييده في هذه المجالات؛ سوف يؤدّي إمّا إلى تخريب الاجتماع البشريّ، أو إلى انحطاطه وابتعاده عن طريق الكمال والسعادة، وهذان الأمران مخالفان للفطرة والطبيعة الاجتماعيّتين، وطلب الكمال.

وفي منطق القرآن الكريم، يُعدّ الخروج عن الحدود الإلهيّة - وقد عُبِّر عنه بالـ «**الفسق**»- عاملاً مخرّباً للمجتمعات البشريّة: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾[1]، كما يُعدّ الانقياد لأحكام الله وطاعة رسوله ﷺ؛ سبباً للفوز والاستقامة: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥١ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾[2].

لذا، كانت من وظائف الحكومة الصالحة وضع برنامج تنظيم المجتمع وقيادته نحو الكمال والصلاح، ووضع سدود رادعة أمام العناصر الفاسدة والشرّيرة والمعتدية، ومواجهة أيّ عنصر أو جزء مخلّ بمسار تكامل المجتمع، بشكل يتناسب مع مقدار الضرر، وبمقدار ما على عهدته؛ لجهة حرّيّة بقيّة الأفراد وحقوقهم، وقد يتمّ حذف هذا الجزء - المخرّب- من صفحة المجتمع؛ لتستمرّ الحياة الاجتماعيّة وحياة بقيّة الأجزاء: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[3].

وأحياناً تُسلَب حرّيّة الفرد في أهمّ الأمور، وتُعطى للآخرين، بالرغم من أنّ حقوقه الإنسانيّة محفوظة؛ كاسترقاق أسرى الحرب؛ الذي يُجوِّزه الإسلام، ولا منافاة بينه وبين الحرّيّة الفرديّة والاجتماعيّة، التي هي أمر فطريّ؛ لأنّ كون الإنسان كائناً اجتماعيّاً هو -أيضاً- أمر فطريّ، وكما أنّ الفطرة هي التي أعطته الحرّيّة، فهذه الفطرة نفسها تُلزمه -أيضاً- بضرورة حفظ النظام، فحفظ أيّ مجتمع وحمايته من الزوال هو حقّ

(1) سورة الإسراء، الآية 16.
(2) سورة النور، الآيتان 51-52.
(3) سورة البقرة، الآية 179.

طبيعيّ للمجتمع، وهذا الحقّ مُوجِب بالطبع لتقييد حرّيّة أيّ شخص أو سلبها؛ فيما لو نهض لمحاربة أساس ذلك المجتمع وحياته.

وأحياناً يُقيَّد نشاط الفرد وتأثيره في أمر أو أمور؛ كتقييده في مكان السكن[1]، في مورد الحكم بنفي شخص إلى منطقة غير منطقة سكنه: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[2]، و-أيضاً- مثل: سلب حرّيّة التجارة والتحكُّم بالمال، بالنسبة للأمور الباعثة على الفساد؛ كشرب الخمر وبيعه، والترويج للقمار واللعب به، واحتكار المال الخاص، وغير ذلك.

إنّ وجود الإنسان وحياته الفرديّة الاجتماعيّة، والهدف من خلقه وسعادته، تدعونا إلى إيجاد السبيل الذي يكون ضامناً لسعادتنا، والذي يلحظ مختلف جوانب حياتنا، ويُنظّم العلاقة في ما بيننا بشكل صحيح، ويُرشدنا، من خلال وضع نظام معقول ومتناسب مع البناء الوجوديّ للإنسان، إلى الكمال المطلوب. وقد بيّن القرآن هذا الطريق: ﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[3].

وقد يُشكَل بأنّ الإسلام يُطبّق سلسلة من القوانين المحدّدة، ونظاماً من العلاقات، ويرى أنْ لا حقّ للناس في تغيير ذلك، وأنّهم ليسوا أحراراً - أحياناً- في تغيير القوانين الحاكمة، والنظام السياسيّ الاجتماعيّ القائم، وإقرار نوع جديد من العلاقات والسلوك السياسيّ الاجتماعيّ؛ طبق ميولهم ورغباتهم. والنتيجة أنّ هذا الأمر يُفضي إلى ركود المجتمع

(1) يعدّ القرآن اختيار الإنسان لمكان عيشه وسكنه حقّاً رسمياً وشرعياً له، ويُعدّ سلبه ذلك الحقّ ظلماً ومصادرة لحرّيّته؛ حيث يقول تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ ﴾ (سورة الحج، الآيتان، 39-40).

(2) سورة المائدة، الآية 33.

(3) سورة الروم، الآية 30.

وثباته، ويحول دون تطوّر الناس والمجتمعات البشريّة. لذلك، فالدين – وإن تضمّن سُبُل سعادة الإنسان، وكان بإمكانه القضاء على الآلام والمتاعب، وكانت لديه القدرة على منح الحرّيّة – لا يُمكنه، عندما يحكم في محيط ما – ولا ينبغي له – أن يُعرِضَ، وإلى الأبد، عن طرز الرؤى والمناهج الجديدة؛ وإلا يكون قد سدّ طريق التطوّر، وسبيل التكامل، وهذا يؤدّي إلى الجمود والسكون؛ والسبب في ذلك يعود إلى أنّ الإنسان يتغيّر مع مرور الزمن، وتطرأ على أفكاره وروحيّاته تغييرات، تُضاف إلى علومه وتجاربه، لذلك يبتغي سُبُلاً جديدة.

وفي الجواب عن الإشكال المذكور، يُمكن القول: إنّ المعارف والمحصّلات الفكريّة نوعان:

1. نوع يقبل التغيّر والتحوّل والتكامل؛ ككلّ العلوم التي توصَّل إليها البشر؛ في سبيل تسخير الطبيعة والاستفادة منها، وهي في تكامل يوماً بعد يوم، وتسهم في تسهيل الحياة الفرديّة والاجتماعيّة، وتُعدُّ مناهج وطرقاً جديدة؛ لتحقيق طموحات الإنسان. وتكامل هذه العلوم والأساليب هو محلّ ترغيب وتقدير كبيرين في الإسلام؛ من قبيل: الأساليب الجديدة في إدارة الحكومات والدول؛ كالانتخابات، والفصل بين السلطات، وغيرهما.
2. المعارف والحقائق الكلّيّة المُطابقة للخلق: الإلهيّ والمادّيّ (الروحيّ والمادّيّ)، والفطرة، والطبيعة الخاصّة بالنوع الإنسانيّ، التي تُقيم توازناً بين جميع قوى الإنسان في داخله، وفي ميدان العمل الاجتماعيّ، وتؤمّن سعادته الحقيقيّة. ومن البديهي أنّه إذا قام النظام الاجتماعيّ، ووضعت الحدود والقيود؛ بناءً على تلك المعارف، ألا يكون ارتكازها عليها موجباً للركود والأفول فحسب، بل إنّ التغيير والتحوّل فيها (أي المعارف) أو إهمالها موجب للاختلال في النظام الحيّ والبنّاء والخلّاق والحرّ، ويُبعِد الإنسان

-أيضاً- عن منظومة فطرته وطبيعته، تلك الفطرة التي لا تقبل التبديل والتغيير: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾. لذلك جعل الله المتعال الدين والنظام السياسيّ الاجتماعيّ الدينيّ؛ سبيلاً وحيداً؛ لضمان استقرار العدالة ونشرها، وتربية الإنسان خليفة الله في الأرض؛ بوساطة الأنبياء العظام عليهم السلام.

ومن الطبيعي أنّه لا يُمكن إعطاء الحرّيّة للبشر في أن يَدَعوا طريق الحرّيّة الكامل والجامع جانباً، ويتحرّكوا وراء أهواء الهيمنة والتسلّط في العلاقات السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة. كما أنّه لا تُعطى للإنسان الحرّيّة في أن يدع حرّيّته الشخصيّة - الخاصّة به- جانباً، ويُصبح عبد شخصٍ آخر؛ بل إنّ الله قد خلق الإنسان مختاراً، وطلب منه أن يختار بعلم وتعقّل، يقول - تعالى -: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[1]، فسعادته وكماله يتحقّقان فقط في الصورة الأولى، (أن يكون شاكراً)؛ لأنّه ليس بعد الحقّ إلا الضلال المبين: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾[2]، لذلك، طَلَبَ من الناس اختيار هذا الطريق القويم: ﴿أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾[3]، ويُشير إلى أنّ هؤلاء الذين تفرّقوا عن دين الله، واختاروا طريقاً آخر، عن سابق علم ومعرفة؛ إنّما فعلوا ذلك؛ بسبب روحيّة الاستكبار والفساد التي لديهم: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾[4].

ولأنّ نتيجة اختيار كهذا؛ هي خسارة الإنسان نفسه، والفساد في الأرض، وإهلاك الحرث والنسل، وهدم بنيان الحرّيّة الاجتماعية لبني البشر؛ كانت هناك محكمة وحساب عسير في حضرة الله مالك الملوك والجبابرة. ولأنّ الله تعالى رؤوف بالعباد؛ فقد حذّر وتوعّد بشدّة أولئك الذين يُوجِدُون أرضيّة وظروف كهذه: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ

(1) سورة الإنسان، الآية 3؛ وانظر: سورة الرعد، الآية 11؛ سورة النحل، الآية 114؛ سورة العنكبوت، الآية 40؛ سورة فصلت، الآية 46؛ وغيرها من الآيات التي تؤيّد على الحرّيّة التكوينيّة واختياريّة الإنسان.
(2) سورة يونس، الآية 32.
(3) سورة الشورى، الآية 13.
(4) سورة الشورى، الآية 14.

وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾[1]، ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[2]، ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾[3]، ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗا ﴾[4].

نعم، هناك أمر ينبغي ألا نغفله؛ وهو التدقيق والتأمّل، بوعي وتعقّل، في تعريف الدين وتقديمه بشكل صحيح، وما أكثر الانحرافات التي حصلت في الاستنتاجات والاجتهادات الشخصيّة، وما أكثر تشويه حقائق الدين، مع مرور الزمان! وهنا يتّضح الدور المهمّ لعلماء الدين، في تنقية التعاليم الشائعة من صدأ الخرافات، وتعصّب الخونة وسطوتهم، وتحريف المترفين، وفي أن تُبلوَر فكرة إحياء الفكر الدينيّ؛ بوصفها ضرورة في كلّ العصور، ولا شكّ في أنّ عقلانيّة الدين الحنيف الإسلاميّ، قد فتحت الطريق أمام الجميع، وأعطتهم الحرّيّة في التعرّف إلى تلك الحقيقة الأصيلة، وشجّعتهم على البحث والمناقشة العلميّة في الإطار المنطقيّ والمنهجيّ؛ بعيداً عن التضليل والخداع.

سابعاً: الحرّيّة وسيلة وليست غاية:

اتّضح ممّا سبق أنّ الحرّيّة هي «**كمال وسيلة**»، لا «**كمال غاية**»، ولا تمام الهدف، فالغاية هي وصول الإنسان، الحرّ المختار، والعاصي، والظلوم، والجهول، إلى الكمال المطلوب، وليست الوصول إلى الحرّيّة نفسها.

نعم، إذا فقد الإنسان الحرّيّة، ليس له بعد ذلك كمال في سلوك هذا الطريق. فلا كمال إنسانيّاً مع الجبر والإكراه. فكمال الإنسان يتمثّل في الحركة بحرّيّة وعلم ووعي. لذا ينبغي أن يكون الإنسان حرّاً؛ ليجرّب

(1) سورة النساء، الآية 14.
(2) سورة المائدة، الآية 45.
(3) سورة المائدة، الآية 47.
(4) سورة القصص، الآية 83.

ويتأمّل ويعتبر ويختار. فازدهار المجتمع، وتفتّح الاستعدادات، والإبداع، والخلق أمور غير ممكنة في الظروف المتقلّبة، وفي ظلّ انسداد الأفق، حيث يتمّ (في واقع كهذا) تقييد الحركة والنشاط، ويؤول الوعي والتكامل إلى الأفول والركود، وهذا مخالف للهدف الغائيّ المذكور. فالإسلام لا يقبل بحبس إرادات الناس في قفص الإكراه، ولا يرضى بتهديم بنيان المجتمع، بل على العكس من ذلك؛ إذ قدّم له الكثير بُغيّة تحقيق رشده، والإسلام لا يرفض سلب حرّيّة الأفراد من الآخرين فحسب، بل يرى أنّ جميع الناس مسؤولين، بعضهم أمام بعضهم الآخر؛ لجهة تأهيلهم وجعلهم يطوون المسار التكامليّ بسرعة، ولذلك أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ ليتمّ قلع كلّ مجالات السكون والركود والجهل والفساد ومناشئها بأيدي آحاد الناس، وأن يتعاونوا في هذا الأمر في ما بينهم.

ولم يقل الإسلام فقط: «**المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه**»[1]، بل قال: «**من لم يهتمّ بأمور المسلمين فليس بمسلم**»[2]. ولم يكتف الإسلام بـ ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾[3]؛ بمقتضى حرمة التعدّي على نفس الآخر وماله وعرضه، بل قال: «**ما آمن بالله واليوم الآخر من بات شبعاناً وجاره جائع**»[4].

وبناءً على هذه القاعدة، فإنّ أفضل الأمم في منطق القرآن المجيد، ليس الأمّة الحرّة فقط، التي لا تتسبّب بالسوء والأذى لجارتها، والتي تتحرّر من الإجبار والإكراه والحصار؛ بل إنّ أفضل الأمم تلك التي تقبل مسؤوليّة تعالي الإنسان ورفعته وتتحمّلها: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[5]، ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ

(1) المجلسي، بحار الأنوار، م.س، ج1، باب4 من أبواب كتاب العقل والعلم والجهل، ح7، ص113.
(2) الكليني، محمد بن يعقوب: الكافي، تحقيق وتصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، ط4، طهران، دار الكتب الإسلاميّة، مطبعة حيدري، 1365هـ.ش، ج2، باب الاهتمام بأمور المسلمين...، ح4، ص164.
(3) سورة البقرة، الآية 188.
(4) العاملي، محمد بن الحسن: وسائل الشيعة، تحقيق ونشر: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ط2، قم المقدّسة، مطبعة مهر، 1414هـ.ق، ج17، باب49 من أبواب ما يكتسب به...، ح1، ص209.
(5) سورة آل عمران، الآية 110.

وَٱلتَّقۡوَىٰۖ ﴾[1]، وأنّ آحادهم ليسوا فقط لا يؤذي بعضهم البعض الآخر، بل هم إخوة: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾[2]، وفي ميثاق الأنبياء السابقين عليهم السلام -أيضاً-، تشديد على مسؤوليّة أعلى من الحرّيّة، وكذلك وعيد بالعذاب للمخالفين: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾[3].

ثامناً: مواجهة عوامل مصادرة الحرّيّات في الأديان السماوية:

إنّ الأسباب التي تؤدّي إلى سلب الحرّيّات تقع على ثلاثة أشكال:

- عوامل ترتبط بالفاعلين؛ أي بمصادري الحرّيّة، كروحيّة الاستكبار، وطلب الجاه والمنصب، والإفساد.
- عوامل ترتبط بأصحاب الحرّيّة المسلوبة منهم؛ كالجهل، والضعف، والغفلة، والتخلّف، والذلّ، والحقارة؛ فهذه العوامل تؤدّي إلى أقصى حالات تعسّف المجموعة الأولى، واستغلالها لهم، وسوقهم نحو العبوديّة والذلّ.
- عوامل ترتبط بنظام العلاقات الاجتماعيّة والنظام السياسيّ الحاكم؛ كالنظام العائلي (العشائريّ) الظالم القائم على عدم توفيره الكرامة الإنسانيّة لأحد أعضاء المجتمع؛ أي المرأة، أو النظام الاقتصاديّ الظالم الموجب لسلب حقوق مجموعة من الناس وتركهم في مستنقع الفقر والجوع، وإشباع مجموعة أخرى إلى حدّ التخمة الزائدة، أو نظام الطبقات الحاكم على العلاقات الاجتماعيّة الذي يُصنّف الناس حسب العرق واللون والموطن والامتيازات النوعيّة والفئويّة إلى طبقات أولى وثانية وثالثة...، ويجعل لطبقات خاصّة علوّاً ومقاماً،

(1) سورة المائدة، الآية 2.
(2) سورة الحجرات، الآية 10.
(3) سورة البقرة، الآية 83.

ويُقدّمها على الطبقات الدنيا من دون أساس، ويُوجِب حقوقاً خاصّة لكلّ طبقة لها أو عليها، أو النظام السياسيّ الحاكم على المجتمع ومركز السلطة والدولة؛ كالحكومات الطبقيّة والديكتاتوريّة والملكيّة القائمة على حكم العائلة الوراثيّ، من قبيل: مَرْكَزَة السلطة، وعدم تفويضها، أو عدم وجود حقّ للناس في الرقابة على عمل الحكّام، وأمور أخرى؛ بحيث يوجب ذلك تشكّل نظام سياسيّ استبداديّ، وحكومة الفرد الواحد، أو حكومة مجموعة خاصّة، يقوم أفرادها، بهدف الحفاظ على سلطانهم؛ بتضييق الخناق على الناس، وسلب حرّيّاتهم، وهضم حقوقهم، وعدم الاعتراف بها.

ويتّضح ممّا تقدّم أنّ عوامل قمع الحرّيّات وسلبها؛ هي: إمّا داخليّة ترجع إلى روحيّات الأشخاص أنفسهم؛ من قبيل العوامل الأولى والثانية، أو خارجيّة واجتماعيّة؛ من قبيل العوامل الثالثة.

وأمام ذلك؛ فإنّ الدين الكامل والجامع والباعث للحرّيّة، هو الذي يمتلك قدرة القضاء على هذه العوامل جميعها؛ بما لتعاليمه وأحكامه من القدرة على إبطالها بشكل طبيعيّ. ومن الواضح جدّاً أنّ العوامل الداخليّة تؤدّي دوراً فريداً، ولعلّها أهمّ من العوامل الخارجيّة وأخطر؛ من جهة أنّها تُشكّل الأرضيّة المُساعدة للعوامل الخارجيّة؛ فهي تأتي في الدرجة الأولى، ولا شكّ في أنّ لإزالة هذه العوامل أهمّيّة أكبر، ولها الأولويّة على غيرها. ولا يخفى أنّ المذاهب البشريّة «**الوضعيّة**» لم تجترح حلّاً لهذه العوامل حتى الآن. وفي الأساس، فإنّ رؤيتها للإنسان لا تُمكّنها من الوصول إلى هذا النوع من التعاليم وحيازتها والقيام بها. ولكنّ الأديان السماوية – وخصوصاً الإسلام – تضع كلّ العوامل الداخليّة والخارجيّة المسهمة في سلب حرّيّة الإنسان تحت نظرها، وتُقدّم العلاج لها، وتبذل مساعيَ حثيثة في هذه الجهة؛ لكي تصنع الإنسان؛ ذلك الإنسان الذي لا يكون ظالماً ولا مستكبراً، ولا يرضخ للظلم، ولا يكون مستضعفاً وجاهلاً.

أمّا كيف واجهت الأديان السماوية عوامل كبت الحرّيّة، فبيان ذلك في ما يأتي:

1. **الأديان السماويّة ومواجهة عوامل كبت الحرّيّة مع وجود القامعين لها:** يُعدّ التكبّر على عباد الله في التعاليم القرآنيّة، من الأمور المُوجِبة للبعد عن رحمة الله تعالى، والحرمان من السعادة الأبدية، فقد جاء في الكتاب العزيز: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1]. ويقول تعالى -أيضاً-: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2]، فالإسلام يدعو الناس إلى القسط والعدل: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾[3]، ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[4]. والعزّة والقدرة ﴿الملك﴾ من الله يؤتيهما من يشاء من عباده: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ﴾[5]، وأهل الإيمان هم الحافظون لحدود الله: ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[6]، ويرى أنّ اتّباع أهواء النفس سبب الظلم: ﴿ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ﴾[7]، وأنّ طريق الاستقامة يلجم هذه الأهواء: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[8].

وبناءً على ذلك، فالهدف الأوّل للقرآن وتعاليمه السماويّة؛ هو التحرّر المعنويّ والباطنيّ؛ أي تحرير الإنسان من أسر الأهواء الدنيئة والوضيعة، وتذكيره بالكرامة والعزّة ومقام الخلافة الإلهيّة الرفيع؛ وذلك ليتحرّر من قيود المادّة والشهرة والسلطة والجاه.

(1) سورة القصص، الآية 83.
(2) سورة الشورى، الآية 42.
(3) سورة المائدة، الآية 8.
(4) سورة الحجرات، الآية 9.
(5) سورة آل عمران، الآية 26.
(6) سورة التوبة، الآية 112.
(7) سورة الروم، الآية 29.
(8) سورة الحشر، الآية 9.

وبغية الوصول إلى ذلك، ينبغي ألا يُقيِّد أبناءُ جنسه حرّيَّتَه. لذا، نرى في قصّة موسى عليه السلام وفرعون، أنّ الله تعالى أمر، في بادئ الأمر موسى عليه السلام وأخاه هارون عليه السلام بالذهاب إلى فرعون ليقولا له قولاً ليّناً نابعاً من القلب ومستحِثّاً للفطرة؛ ليلتفت إلى نفسه وإلى خالقه؛ لعلّه يتذكّر أو يخشى. ثمّ أمرهما، بعد ذلك، بأن يطلبا من فرعون أن يكفّ يده عن أسر بني إسرائيل ويتركهم أحراراً ويدعهم بحرّيّة موسويّة: ﴿اذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾[1].

إذن، لا يُمكن إنكار دور الحرّيّة المعنويّة للإنسان في تحقّق الحرّيّة الاجتماعيّة، وهذا أمر لا بديل منه. وهو حصراً من صناعة التعاليم الدينيّة والسماويّة، والعلوم (المعاصرة) ليست لديها قدرة كهذه، والمذاهب المادّيّة هي في الأساس تُشجّع وتحضّ على خلاف ذلك. فالحرّيّة الاجتماعيّة الدينيّة من هذه الجهة:

- باعثة على الاستقامة والاعتدال؛ أي ليست لها مآرب مادّيّة؛ بوصفها وسيلة لأصحاب القدرة والمال، بخلاف الحرّيّة المطروحة في عالمنا المعاصر.
- عميقة ومتجذّرة وثابتة. فمن جهة أنّها منسجمة مع حرّيّة الإنسان المعنويّة والداخليّة (الباطنيّة)، فهي تقضي على روحيّة المنفعة الشخصيّة والوصوليّة المطلقة؛ بوصفها مقدّمة لسلب حقوق الآخرين، وعلى هذا المنوال، فإنّها تقضي على أهمّ عامل داخليّ لدى العاملين على مصادرة الحرّيّات الاجتماعيّة.

2. **الأديان السماويّة ومواجهة عوامل كبت الحرّيّة لدى المسلوبة منهم:** أمّا في ما يتعلّق بالذين تُسلَب منهم الحرّيّة، فقد جاءت الأديان الإلهيّة، ولا سيّما دين الإسلام الحنيف؛ بأكثر التعاليم

(1) سورة طه، الآيتان 43-45.

قيمة؛ ذلك أنّ هذه التعاليم تقضي على الأسباب المؤدّية إلى الظلم وسلب حرّيّات الأفراد والمجتمع وحقوقهما. فما هي الأمور الموجبة للرضوخ للظلم والرضا بالأسر والاستعباد؟ إنّها الجهل، والغفلة وعدم النضوج وعدم الوعي، أو الذلّ والوهن والضعف وعدم المبالاة بالمصير على مستوى الأفراد والمجتمع، وفي كلا البعدين جاء الإسلام بتعاليم محرِّرة للإنسان.

ففي البعد الأوّل: انتقد الإسلام التحجّر الفكريّ، والتعصّب، والتقليد الأعمى للسنن والعادات القبليّة الخاطئة والباطلة، وكثيراً ما دعا إلى التعقّل، والتفكّر، والعلم، وإعمال البصيرة. وصبّ الغضب الشديد على مَنْ ألبس غير الله لباس الربوبيّة، وجعل غيره سبحانه وتعالى المدبّر ومالك الأمور، وأخرج الإنسان من مقام المخلوقيّة والمربوبيّة للآخر؛ حتى ولو كان هذا الآخر الملائكة والأنبياء عليهم السلام والعلماء: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۚ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[1]، ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[2]، وطلب من الناس -أيضاً- أن يكونوا ربانيّين؛ من خلال معرفة الحقائق وتعلّم الكتاب: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾[3]، ومن أهمّ رسالات الأنبياء العظام عليهم السلام: تلاوة الآيات، وتعليم الكتاب والحكمة، وتزكية النفس، وصقل الروح: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[4]. فالأنبياء عليهم السلام يصنعون من الإنسان الأمّيّ

(1) سورة آل عمران، الآيتان79 - 80.
(2) سورة التوبة، الآية 31.
(3) سورة آل عمران، الآية 79.
(4) سورة الجمعة، الآية 2.

والجاهل والمتخلّف إنساناً واعياً مفكّراً وعاملاً، يتحرّك في المجتمع في ضوء مصباح الحكمة، ولا يقع في حبال المخادعين وأصحاب الفكر الظلاميّ، وإنّ شكوى أولياء الله تعالى، وتألّمهم كانت من جهل الناس وضلالهم أكثر من أيّ أمر آخر. يقول أمير المؤمنين عليه السلام شاكياً: «**إلى الله أشكو من معشر يعيشون جهّالاً ويموتون ضلّالاً**»[1].

وأمّا بالنسبة للبعد الثاني؛ أي عوامل الخسّة والذلّ والضعف الموجبة لضياع الحرّيّة: هذا الجوهر الثمين، والتسليم للقيد والأسر، فالتعاليم القرآنيّة والدينيّة تؤدّي -أيضاً- دوراً عظيماً في السموّ بالفرد والمجتمع، حيث يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**لا يمنع الضيم الذليل، ولا يُدرك الحقّ إلّا بالجدّ**»[2].

فالقرآن الكريم، **أوّلاً**: يُعرّف الإنسان بحقيقته العالية والرفيعة وشخصيّته العظيمة، ويُذكّره بعزّته وكرامته: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[3]، ويُمكن للإنسان أن يكون خليفة الله على الأرض: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[4]، ويصير الكائن الذي تسجد له الملائكة: ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾[5]، وحامل الأمانة الإلهية العظيمة: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[6]. فالإنسان الذي يرى نفسه مصداقاً لهذه الحقيقة لن يقبل بالذلّ والخنوع والأسر من أيّ شخص آخر، ويتحرّر- بالتوكّل على الله تعالى- من كلّ قيد.

(1) الشريف الرضي، نهج البلاغة، م.س، ج1، الخطبة17، ص54.
(2) م.ن، الخطبة29، ص74.
(3) سورة الإسراء، الآية 70.
(4) سورة البقرة، الآية 30.
(5) سورة الحجر، الآيتان 29-30.
(6) سورة الأحزاب، الآية 72.

وثانياً: يقوّي روح الحرّيّة في الناس مباشرة، ويدعوهم لمواجهة قامعي الحرّيّات: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ...﴾[1]، ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾[2]، ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾[3]، ويُقدِّر نداء المظلوم وينتصر له: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ﴾[4]، ويطلب من الأمم أن تكفر بالطاغوت الذي هو منشأ كلّ فساد وظلم وهضم لحقوق الناس، وأن تتجنّبه، ولا تُسلّطه على رقاب أبنائها: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ﴾[5]، ويريد من الناس أن لا يرجعوا إليه أبداً في معالجة أمورهم، وإلا، فإيمانهم موهوم، وهم مخادعون لأنفسهم ليس إلا: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾[6]. فإذا أصغت الأمم بمسامع قلوبها إلى الرسائل الإلهيّة التي جاء بها الأنبياء عليهم السلام، وتلقّفتها، وعملت بها، فلن تُصبح حرّيّتها وكرامتها عرضة للنهب، ولن تُنهب، فإنّ القرآن الكريم لا يدعو فقط إلى الحرّيّة والعزّة، بل يعدّ الإنسان -أيضاً- مسؤولاً عمّا يتعلّق بحرّيّة جميع البشر، وعن الثورة على الظالمين وقامعي الحرّيّات: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾[7]. وقد ورد عن أمير المؤمنين

(1) سورة الحج، الآيتان 39-40.
(2) سورة الشورى، الآية 39.
(3) سورة الشورى، الآية 41.
(4) سورة النساء، الآية 148.
(5) سورة النحل، الآية 36.
(6) سورة النساء، الآية 60.
(7) سورة النساء، الآية 75.

الإمام علي عليه السلام قوله: «**كونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً**»[1]، وقوله عليه السلام – أيضاً: «**رحم الله امرأً رأى حقّاً فأعان عليه، أو رأى جوراً فردّه، وكان عوناً بالحقّ على صاحبه**»[2].

وعلى هذا المنوال، يربّي القرآن الكريم ومعلّمو الدين والأولياء الإلهيّون، بتعاليمهم القيّمة إنساناً طافحاً بالمعرفة والوعي؛ مشبعاً بروح عزيزة، رافضة للظلم، وطالبة للحقّ، لا تسمح أبداً للمخادعين والمستعلين والظالمين بسلبه حرّيّته، ولا بدعوته للجري وراء أهوائه النفسيّة، بل يشعلون له مصباحاً دائم الإضاءة، يرتفع فوق كلّ طالبي العدالة، ليقول: «**القتل أولى من ركوب العار**»[3].

(1) الشريف الرضي، نهج البلاغة، م.س، ج3، الرسالة47، ص76.
(2) الشريف الرضي، نهج البلاغة، ج2، الخطبة205، ص185.
(3) المجلسي، بحار الأنوار، م.س، ج45، بقية باب37، من كلام لسيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام في واقعة كربلاء يوم العاشر من محرّم الحرام سنة 61 للهجرة، ص50.